



أنوار السُّنة المُحمديَّة شرح رياض الصالحين (٩) باب الصبر (٤)

الشيخ أحمد السيد.

الفهرس

المُقدِّمة:	٣
الحديث الرابع عشر: "... : يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ تُوعَكُ وَعَكًا شَدِيدًا..."	٤
فوائد من الحديث:	٤
أولاً: النبي ﷺ خير البشر لم يعافَ من المرض.	٤
ثانياً: إعادة ترتيب الموازين عند الإنسان في تعريف الرحمة.	٥
ثالثاً: الإنسان مهما بلغت مكانته عند الله لا يستغني عن الأجر.	٥
الحديث الخامس عشر: "...مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا،..."	٩
فوائد الحديث:	١٠
أولاً: تصحيح المعايير وضبط الموازين في النظر للابتلاء والسلامة.	١٠
ثانياً: الفائدة العملية: توسعة قدرة المؤمن على الصبر.	١٢
الحديث السادس عشر: "...لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِيُضْرَّ أَصَابُهُ..."	١٢
تعليقات على الحديث:	١٢
الحديث السابع عشر: "...قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ، فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ..."	١٣
فوائد الحديث:	١٤
أولاً: ابتلاء الصحابة -رضوان الله عليهم-	١٤
ثانياً: استحضار أحوال السابقين من أعظم ما يثبّت الإنسان.	١٥
ثالثاً: التفاؤل بالمستقبل من أهم ما يبعث الإنسان على الصبر والثبات.	١٦
رابعاً: كلُّ الشَّأن في اليقين بوعد الله.	١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يحبُّ ربُّنا تبارك وتعالى ويرضى، اللهمَّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك. اللهمَّ صلِّ وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك مُحَمَّد.

نستعين بالله، ونستفتح مجلساً جديداً من مجالس الاستهداء بالسنة النبوية ومجالس (أنوار السنة المُحمدية)، وذلك في تدارُس أحاديث (رياض الصالحين). وهذا هو المجلس التاسع من مجالس هذه السلسلة التي نسأل الله سبحانه وتعالى أن يُتمِّها لنا على خير، وأن يُعطينا بركتها وخيرها؛ بركة أحاديث النبي ﷺ، والاستنارة بأنوارها.

هذا الباب - كما تقدَّم - الذي هو باب الصبر، بابٌ من أبواب الدين العظيمة. وتقدَّم التنبيه إلى أن مَنْ يدرس أبواب الدين، أو مَنْ يطلب العلم الشرعي، ويعتني فقط بأفراد المسائل العملية المُصنَّفة تحت الفقه أو غيره من العلوم المعروفة في الدراسة، دون أن يكون له عنايةً بأبواب الدين الكبرى المُتعلِّقة بأعمال القلوب، وما يُطلَب من الإنسان من حيث العبادة القلبية وما إلى ذلك، يكون قد فاته خيرٌ كثيرٌ في تعلُّم دين الله والتفقه فيه.

فالصبر قال عنه ابن مسعود: "الصبر نصف الإيمان"؛ الذي لا يتفقه في باب الصبر ويعلم ما فيه ويُهَيِّئ نفسه له يكون قد فاته نصف الدين، وقال: "واليقين الإيمان كله". وأيضاً ورد عن غيره: "الدين نصفان: نصفٌ صبر ونصفٌ شكر".

وهذه أمورٌ وأبوابٌ يجب تعلُّمها والعناية بها، وأن لا تكون مُصنَّفةً تحت أبواب الرقائق، أو أبواب الفوائد المُكمِّلة أثناء الطريق، وأنَّ طلب العلم أهمُّ شيءٍ فيه (الدروس العلمية) بين قوسين، أمَّا الأمور المُتعلِّقة بالتوكُّل واليقين والصبر والأعمال القلبية، فهذه رقائق بين فترةٍ وأخرى تُرَقِّق بها القلوب! هذا إشكالٌ حقيقيٌّ. بل هذا هو الدين، وهذه أبوابه الكبرى، وهذه أبوابه العُظمى، وهذه التي ينبغي أن تكون محل عناية، ومحل دراسةٍ ومحل تدارُس، ومحل تنشئةٍ وتربيةٍ، وخلال ذلك ومعه، تأتي أبواب العلم المحضة،

لتنزل منزلها في القلوب التي تتلقاها بشكل صحيح؛ والقلوب التي تتلقاها بشكل صحيح هي القلوب التي تهيأت بعلوم الإيمان لحمل العلوم الأخرى، والتي هي أيضاً مُتصلة بالدين بلا شك.

الحديث الرابع عشر: "... : يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ تُوعَكُ وَعَكًا شَدِيدًا..."

اليوم نبدأ بحديث ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه:-

"٣٨- عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: "دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ تُوعَكُ وَعَكًا شَدِيدًا، قَالَ: "أَجَلْ، إِنِّي أُوَعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ". قُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: "أَجَلْ، ذَلِكَ كَذَلِكَ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَدَى، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ، وَحُطَّتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقُهَا". مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. [أخرجه البخاري: ٥٦٤٨، وأخرجه مسلم: ٢٥٧١] "والوعك مغث الحمى، وقيل: الحمى"

فوائد من الحديث:

أولاً: النبي ﷺ خير البشر لم يعاف من المرض.

هذا الحديث حديثٌ عجيبٌ عظيمٌ، وفيه أنَّ النبي ﷺ الذي هو خير المرسلين، والذي فتح الله له أبواب الأجور، والذي له -إن شاء الله- الوسيلة، وهي منزلة لا تنبغي لأحدٍ إلا للنبي ﷺ، أو إلا لشخصٍ واحدٍ ويُرجى أن يكون النبي ﷺ، هذا كله لم يُبعد عن النبي ﷺ المرض، الذي يُزاد به أجره وتُرفع به درجاته.

أبواب الأجور بالنسبة للنبي ﷺ أبوابٌ واسعة: تبليغ الدين، القيام بالرسالة، الجهاد في سبيل الله... إلى آخره، وهو النبي ﷺ! لكن مع ذلك، ومع كلِّ ما لديه من الخير، ومع كلِّ ما أراد الله سبحانه وتعالى من الخير، ومع كلِّ ما جاء فيه من: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، وما إلى ذلك، إلا أنه لم يُعَفَ ولم يُبْعَد عن قضية المرض تحديدًا، والمرض من بوابة الأجر تحديدًا؛ بل والمرض الذي كان يُصيب النبي ﷺ لم يكن مرضًا عاديًا، وإنما كان مرضًا حمله وثقله كضعف ما يُصيب

الإنسان أو الرجل العادي من الأمراض، فإذا أصاب النبي ﷺ الحمى كان ثقلها عليه كثقلها ضعفين على الصحابي العادي، هذا وقت المرض.

ولذلك، لما جاء ابن مسعود للنبي ﷺ، وفي رواية قال: "فَمَسِسْتُهُ بِيَدِي، فَقُلْتُ: إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعُكًا شَدِيدًا" [صحيح البخاري: ٥٦٦٧]، يعني آثار المرض عليك يا رسول الله أكبر وأشد من آثار المرض علينا، فقال النبي ﷺ: "أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ"؛ الوعكة الواحدة تُساوي وعكتين بالنسبة للصحابة، "إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ"، قال ابن مسعود: "ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟"، هل هذه المضاعفة في الألم وفي المرض لأن لك أجرين يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ: "أَجَلْ، ذَلِكَ كَذَلِكَ".

ثانيًا: إعادة ترتيب الموازين عند الإنسان في تعريف الرحمة.

وهذا الحديث يُعيد أيضًا ترتيب الموازين بالنسبة للإنسان فيما يُصيبه من الشدائد، وما يُصيبه من الأمراض، وما يُصيبه من الأسقام، ويفهم أن القضية في ميزان الله سبحانه وتعالى مُختلفة عن ميزان الرحمة البشرية العادية؛ ميزان الرحمة البشرية العادية: هو ميزان يُبعد عن الإنسان الأمراض والأسقام؛ يعني أُمَّكَ ترحمك فتتمنى لك أن لا تمرض وتسقم، وتُعطيك من الأشياء التي تمنعك من المرض، هذا ميزان الرحمة العادية، والله أرحم بعباده من الأمِّ بولدها، فبالنظر إلى المجموع: المرض رحمة بالإنسان؛ لأنه يُكفر عنه سيئاته، وتكفير السيئات لا يعرف قيمته الإنسان إلا إذا وافى يوم القيامة، حين يُوافي يوم القيامة يعرف ما هو معنى تكفير السيئات؛ -وكما ذكرنا في الدرس السابق- يتمنى في ذلك اليوم أن طال مرضه، أن طال بلاؤه، أن اشتدَّت الشدة عليه أكثر مما كانت عليه في الدنيا؛ لأنه يرى شدة الاحتياج إلى تكفير السيئات في الآخرة، فيحصل له ذلك حين يُوافي عند الله سبحانه وتعالى.

ثالثًا: الإنسان مهما بلغت مكانته عند الله لا يستغني عن الأجر.

وفي هذا الحديث ما كان يُعانيه النبي ﷺ من أنواع الابتلاءات.

وقد جمع الله لرسوله أنواع الابتلاءات التي يُمكن أن تجتمع للإنسان؛ ففي طول مسيرته، بل حتى من قبل النبوة:

(١) نشأ النبي ﷺ يتيماً؛ وهذا -على مرّ التاريخ- يُسجّل في السّير الشخصية كنقطة أساسية، أنّه نشأ يتيماً، نشأ في رعاية جدّه، نشأ في رعاية كذا؛ باعتبار أنّ اليتيم نقطة أساسية في مسيرة الإنسان، فإذا كان قد فقد والديه، فهذه نقطة توضّح بشكل أكبر. فالنبي ﷺ من بداية حياته يتيماً، وهذا ذكره الله سبحانه وتعالى في سورة الضحى، فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ [الضحى: ٦].

(٢) وبعد ذلك، لمّا جاءت النبوة، من أوائل ما نزل عليه ﷺ أنّ الله سبحانه وتعالى قال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، ومن أوائل ما نزل عليه ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٣٠]، ومن أوائل ما نزل عليه ﷺ: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [العلق: ٩-١٠]، وهذه كلّها تدلّ على أنواع التحديات التي كانت تُحيط بالنبي ﷺ.

وأذكر في مجال (سورة المؤمن) في حلقات (الهم والحزن)، تتبّعُ إلى حدّ ما أنواع الهموم، أو الابتلاءات والمصائب التي كان يُصاب بها النبي ﷺ كعناوين كبرى، تحت العنوان الواحد تفاصيل. واحد من العناوين -مثلاً- المذكور هنا في الحديث الذي هو المرض؛

(٣) النبي ﷺ كان يمرض، والمرض الذي يُصيبه تكون شدّته إذا أصابه كشدّة المرض على رجلين.

١. وحتى في الأمراض العارضة، ليس الأمراض التي تأتي مثل الحمّى أو غيرها، لا، أحياناً تأتي بسبب حوادث مُعيّنة؛ تعرفون أنّ النبي ﷺ لمّا صلّى جالساً بالناس كان بسبب سقوطه من على فرس، كما في البخاري: "فَجَحَشَ شِقُّهُ الْأَيْمَنُ" [صحيح البخاري: ٨٠٥]، فاضطر النبي ﷺ لأنّ يُصلي بالناس جالساً، فصلّوا وراءه جلوساً أو قعوداً. وهذا من أنواع المرض، من أنواع التعب.

٢. وكذلك مرض الموت، الذي مات فيه النبي ﷺ، كان يُغشى عليه ﷺ من المرض، ثمّ لمّا يفيق يطلب الماء فيقول: "هَرِيقُوا عَلَيَّ مِنْ سَبْعِ قَرَبٍ لَمْ تُحْلَلْ أَوْكِتُهُنَّ" [صحيح البخاري: ٥٧١٤]، فيأتون له بسبع قرب فيصبونها عليه ﷺ إلى أن تُوفي النبي ﷺ.

٣. وعلى مُستوى الجراحات: أُصيب النبي ﷺ في وجهه، كُسرت رباعيته كذلك.

٤. هذا الآن بابٌ، وهناك أبوابٌ أخرى كثيرة من أبواب الابتلاءات التي ابتلي بها النبي ﷺ.

(٤) ولا تدري أيهما أشدُّ، البلاء الحسي أم البلاء المعنوي. وقد يكون البلاء المعنوي الذي ابتلي به النبي ﷺ أشد من البلاء الحسي. وأشدُّ البلاء المعنوي الذي ابتلي به النبي ﷺ هو تكذيب الناس، فهذا أشدُّ شيء. وربما إلى اليوم، بالنسبة للإنسان صاحب الحق، صاحب الرسالة، قد يكون أشدَّ عليه من ضرب الشياطين، حين يكون التكذيب من أناسٍ لهم قيمتهم، أمّا التكذيب من السفهاء فأمره سهل.

١. لكن أن يأتي النبي ﷺ يدور على الناس يقول لهم: "قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا"، فعلمه يكون خلفه ويقول: لا تُطيعوه؛ فإنه كذابٌ [تخريج سنن الدارقطني: ٢٩٧٦ / صحيح]، ويكون عامة من في قريش يتكلمون عنه هذا الكلام!

٢. حتّى كما في صحيح مُسلم، لمّا جاء ضماد الأزدي، وكان يرقى، فسمع من قريش أن هناك رجلاً به شيء، فذهب إلى النبي ﷺ، فقال: "أنا أرقى من هذه الريح"؛ يعني إذا أردت رقية، لأنّه سمع من مجموع كلام قريش أن هناك شخصاً فيه شيء في عقله، الذي هو النبي ﷺ، هكذا يقولون عنه، تخيل هذه السُّمعة! ثمّ يذهب إليه ويقول: هل لك؟، فقال النبي ﷺ: "إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ"، فقال: "أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ"، فأعادهنّ عليه رسولُ الله ﷺ ثلاث مرّاتٍ، فقال: "لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعْرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ..." [صحيح مسلم: ٨٦٨]، ودخل في الإسلام وباع على قومه كذلك. إلى غير ذلك.

ولذلك لو تلاحظون في كتاب الله سبحانه وتعالى تأتي مُواساة النبي ﷺ فيما يتعلّق بالقول الذي يُقال عنه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧]، ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾، لاحظتم؟ "يَضِيقُ صَدْرُكَ" و"يَحْزُنُكَ" وعُلِّقت بالقول: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾، ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ

اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿﴾ [الأنعام: ٣٣]، وهذه مؤاساة كبيرة؛ لأنك حين تعرف يقيناً أن الذي أمامك يُكابِر فقط وأنه حقيقة لا يُكذِّبُكَ، فهذا يُهَوِّنُ عليك كلامه.

والمُصيبة تصير أكبر حين لا تدري إن كان الذي أمامك يتكلم لأنه مُتَبَيِّنٌ لهذه القضية حقاً، فهو بعقله، وبما يُعرف عنه، وبمكانته، هو يرى فعلاً أنك ضالٌّ، ثم يُشيع هذا القول في الناس، هذه صعبة! لكن حين تعلم يقيناً أنه - وإن كان ما كان في مكانته - يعلم أنك على الحق، ولكنه يُكابِر بقوله هذا، فهذا يُهَوِّنُ عليك القضية؛ لأنه أصلاً يهون عليك الشخص؛ الشخص قد يكون له مكانة عندك في عقله، في كذا.. لكن لما تعرف أن كل هذا الكلام هو عبارة عن استعراض لفظي، وأنه هو في باطنه غير ذلك، أصلاً الشخص نفسه يهون عندك، وإذا هان الشخص هان كلامه؛ ليس معنى هان كلامه أنه لن يُؤثِّر، لكنه يهون نوعاً ما.

٣. وأذى السفهاء أيضاً يُؤثِّر، لكن أذى السفهاء عادةً ليس مثل أذى الكبار؛ أذى الكبار له تأثيره وله أسلوبه، أمّا السفهاء: الاستهزاء وغير ذلك من الأشياء... تعرفون أنهم سلَّطوا عليه السفهاء في الطائف، وحتى في مكة، وغير ذلك.

فالشاهد، أن النبي ﷺ في حياته في النبوة، التي استمرت ثلاثاً وعشرين سنة، لم تكن هذه الحياة حياة بعيدة عن الابتلاءات والمُشكلات؛ بل كانت حياة مُحاطةً بالبلاءات والمُشكلات، والتحدّيات والعقبات. ومصادرها مُختلفة ومُتنوّعة، فمنها مصدر المُنافقين، ومنها مصدر المُشركين، ومنها مصدر اليهود، ومنها مصدر الأعراب، ومنها:

(٥) مصدر عموم الناس من ناحية الضغط والشدة والطلب، وما يحتاجه الناس وأسألتهُم؛ وتعلمون كما في الحديث الصحيح، كان النبي ﷺ يُصَلِّي قائماً، بعد ما حَطَمَهُ النَّاسُ صَلَّى قاعداً [معناه في صحيح مسلم: ٧٣٢]. فهذه لها تأثيرٌ.

(٦) حتّى الأعباء الاجتماعية لها تأثير؛ النبي ﷺ كان في بيوته، يعني حتّى زوجاته كانت لهن طلبات، وكان أحياناً تقع خلافات أو مُشكلات أو كذا... وهذه أيضاً لها تأثيرٌ. وتعلمون القصص المشهورة فيها مع عمر -ع- وابنته حفصة، وعائشة ابنة أبي بكر الصديق رضي الله عنهم.

الشاهد: أنَّ هذه أبوابٌ من أبواب البلاء ومن أبواب الشدَّة ومن أبواب المصاعب التي كانت تمرُّ بالنبي ﷺ، وأنَّ هذه الابتلاءات وهذه الشدائد هي بابٌ للأجر للنبي ﷺ.

والفائدة من ذلك أنَّ يُعَلِّم أنَّ الإنسان مهما بلغت مكانته، ومهما بلغت منزلته عند الله، فهو لا يستغني عن الأجر، فالنبي ﷺ لم يكن مُستغني عن الأجر، إلى درجة أنَّه لم يكن مُستغني عن الأجر الذي يأتي من الأمراض والأسقام، والهموم والشدائد! لم يكن مُستغني عن هذا الأجر، وهو النبي ﷺ! فما بال مَنْ دونه يشعر بأنَّه مُستغني عن كثيرٍ من أبواب الأجور؟! وكأنَّه ضَمِنَ مقعد الصدق عند مليكٍ مُقتدرٍ! وكأنَّه ضَمِنَ الفردوس الأعلى! ويغترُّ بأعماله، ولا يرى نقصه ولا تقصيره، ويفرح ببعض الأعمال الصالحة التي يعملها، ويظنُّ أنَّه: الحمد لله ماذا بقي من الأعمال الصالحة؟! كلُّ شيءٍ عملته الحمد لله ربَّ العالمين!

لم يكن هذا تفكير الصالحين، ولا هذه سبيلهم، ولا هذه طريقتهم، بل حتَّى النبي ﷺ نفسه الذي له ما له عند الله سبحانه وتعالى من المنزلة العلية، لم يكن يستغني عن الأجر من مُختلف أبواب الأجور؛ كما ورد في بعض الأحاديث في الطريق إلى بدرٍ، أو من بدرٍ قال ﷺ: "ما أنتم بأقوى مِنِّي، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما" [أخرجه أحمد: ٣٩٠١]، لَمَّا كان يعتقب والرجلين على البعير. والكلام في الحديث كثيرٌ، لكن نتجاوز.

الحديث الخامس عشر: "...مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا..."

الحديث التالي:

٣٩- "عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا، يُصِبْ مِنْهُ". رواه البخاري". [صحيح البخاري: ٥٦٤٥]

"وَضَبَطُوا" يُصِبْ "بفتح الصاد وكسرها"؛ يعني "يُصِبْ مِنْهُ" أو "يُصِبْ مِنْهُ".

"مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا، يُصِبْ مِنْهُ". المشهور الحديث الآخر: "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ" [صحيح البخاري: ٣١١٦]، نفس المقدمة: "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ"؛ يعني: كما تتعامل

مع حديث: "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ"، مَنْ لَا يُفَقِّهُ فِي الدِّينِ مَا هِيَ أَبْوَابُ الشَّرِّ الَّتِي
يُمْكِنُ أَنْ تَنْفَتِحَ عَلَيْهِ؟ كَذَلِكَ مَنْ لَمْ يُصَبِّ مِنْهُ.

وَيُرَوَّى فِي الْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ التَّارِيخِيَّةِ أَنَّ خَالِدًا بْنَ الْوَلِيدِ -فِيمَا أَذْكَرَ- طَلَّقَ إِحْدَى زَوْجَتَيْهِ، فَقَالَ:
"مَا نَقَمْتُ عَلَيْهَا شَيْئًا إِلَّا أَنَّمَا لَمْ تُصَبِّ عِنْدِي بِشَيْءٍ، لَا بِمَرَضٍ وَلَا بِشَيْءٍ؛ فَطَلَّقْتُهَا. فَهَذَا: "مَنْ يُرِدِ
اللَّهُ بِهِ خَيْرًا، يُصِيبْ مِنْهُ".

فوائد الحديث:

أولاً: تصحيح المعايير وضبط الموازين في النظر للابتلاء والسلامة.

طبعاً نحن قلنا في قضية تصحيح المعايير وضبط الموازين والمقاييس، هذا الحديث يُعيد ضبط الموازين
والمقاييس بطريقة هي عكس ما يفهم كثير من الناس؛ يمكن أن يُفَكِّرَ أَحَدٌ: مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يجعله
في عافية في بدنه، ويكون دائماً بخيراً، منبسّطاً وسعيداً، وليس عنده مشاكل ولا تحديات، ودائماً معافى
من الأمراض، ودائماً الأمور مُسهَّلةً له، وهكذا... في تفكير كثير من الناس، أن الحمد لله، الله يريد بي
الخير، الحمد لله كلُّ شَيْءٍ مُسهَّلٌ، وكلُّ أموري تمام، لا شَيْءٌ صَعْبٌ في حياتي، والحمد لله ما مررت
بمشاكل، ولا مررت بتحديات، وما رأيت مصابات. الحمد لله، الله يريد بي خيراً! هنا العكس، هذا
يخيف، في المعايير التي صرحها النبي ﷺ القضية عكس ذلك: "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا، يُصِيبْ مِنْهُ".

وكما قُلْتُ، خاصّةً في هذا العصر، هذا المفهوم الخاطيء المُعَاكِس لهذا الحديث مفهومٌ مُنتَشِرٌ جدّاً؛
ويجب إعادة ضبط هذه الأفهام على معيار الوحي. اليوم تعرفون فكرة الكلام الكثير عن فكرة النجاح،
وفكرة التميّز في الحياة، وفكرة الابتعاد عن المُشكلات... بحيث يُراد رسم قوانين الجنة في الحياة الدنيا،
وهذا أصلاً كُلُّهُ عبارةٌ عن أوهام؛ لأنَّ الإنسان لن ينفكَّ عن المُشكلات، لكن قد تُؤخَّرَ عليه، قد
يُمهَّل، كما ذكرنا أيضاً في اللقاء السابق.

القرآن يُبَيِّنُ أَنَّ الْقَضِيَّةَ بِعَكْسِ ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ
أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]، مع أنَّ أَحَدَنَا مِنَ الْمُمَكِّنِ أَنْ يُفَكِّرَ أَنَّهُ: فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ

أخذناهم بغتة، كلا، أول شيء قبل ﴿أَخَذَهُمْ بَغْتَةً﴾ جاءت: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، ومعنى فتحنا عليهم أبواب كل شيء: الأرزاق، الرخاء الاقتصادي، أمور السعادة الدنيوية، الإنجازات العمرانية... هذه ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذَهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤]. هذا بالنسبة للمجتمعات والأمم.

وبالنسبة للأفراد، قد يظن الإنسان أنه إذا كان سالمًا في بدنه، في صحته، في حياته الاجتماعية، في علاقاته، في سعيه الدنيوي، دائمًا سالم، دائمًا ناجح، دائمًا ليست لديه مشاكل، فالطبعي الآن - في تفكير الناس المعاصرين - أن هذه علامة توفيق، وهذه علامة خير، لكن في ميزان الوحي يجب أن تنتبه؛ إذا كان كل شيء عندك يسير بشكل جيد من ناحية الأمور الدنيوية، فهناك شيء يجب أن تنتبه إليه.

والمفهوم ليس تطلب البلاء، المفهوم ليس أن يخفض الإنسان مناعة الجسم حتى يُصاب بالأمراض! بالعكس، الإنسان يسعى للعافية، العافية مطلوبة، ومطلوب أن يسعى الإنسان لها، لكن في القدر، لا بُدَّ أن يعلم الإنسان أنه في ميزان الله المؤمنون لا بُدَّ أن يُبتلوا، والابتلاءات ليست مرحلة فقط، الابتلاءات شيء متصل.

ومن الأحاديث العظيمة في ذلك - وفي البخاري أيضًا - أن النبي ﷺ يقول: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَالْحَمَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ، تُفَيِّئُهَا الرِّيحُ مَرَّةً، وَتَعْدِلُهَا مَرَّةً، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَالْأَرْزَةِ، لَا تَزَالُ حَتَّى يَكُونَ انْجِعَافُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً." [صحيح البخاري: ٥٦٤٣]، وفي رواية في الصحيح: "وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يُكْفَأُ بِالْبَلَاءِ." [صحيح البخاري: ٧٤٦٦]؛ هذه حال المؤمن، مرة يجيئه الابتلاء من هنا، ومرة يجيئه الابتلاء من هناك، أمَّا المنافق تلقاه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، ليس به شيء، "حَتَّى يَكُونَ انْجِعَافُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً".

والقصد - كما أسلفنا - ليس في تطلب الابتلاءات؛ فالعافية من أعظم ما يُعطاه الإنسان، والإنسان يسأل الله العافية، ويكثر من دعاء: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، و "إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ" [مسلم: ٩١] إلى آخره من الأحاديث والآيات. لكن

نحن من جهة القدر، يجب أن نعلم أن المؤمن لن ينفك عن الابتلاءات؛ فإذا وجد مؤمن لا توجد ابتلاءات في حياته، فمن المؤكد أن ذلك لنقص إيمانه، هذه قاعدة أساسية ومحكمة.

ولأجل ذلك، ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: "سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلِأَمْثَلٍ"، ثُمَّ قَالَ ﷺ: "يَتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ" [سنن الترمذي: ٢٣٩٨ / حسن صحيح] وهكذا.. البلاء على درجاتٍ وعلى أحوالٍ.

ثانيًا: الفائدة العملية: توسعة قدرة المؤمن على الصبر.

إذن، "مَنْ يُرِدَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصَبِّبْ مِنْهُ"، الفائدة العملية توسعة إمكان الصبر بالنسبة للمؤمن؛ لأنَّ واحدة من الأشياء التي تُعينه على الصبر أنه لا يرى أنَّ ما يُصاب به ليس خيرًا، فهو لا يُعرِّف الإصابات التي تُصيبه بأنها عقوباتٌ من الله عليه، وأنَّ حياته ليست ناجحةً، كلا؛ هو يرى أنَّها خيرٌ، وإذا رأى أنَّها خيرٌ أُعِينَ على الصبر، وسهل عليه الصبر.

الحديث السادس عشر: "...لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِضُرِّ أَصَابِهِ..."

الحديث التالي:

٤٠- "عن أنس رضي الله تعالى عنه، قال رسول الله ﷺ: "لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِضُرِّ أَصَابِهِ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي" مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ". [صحيح البخاري: ٥٦٧١، صحيح مسلم: ٢٦٨٠]

هذا الحديث فيه الكلام عن تمَّيُّ الضر وتمَّيُّ الموت بسبب عدم تحمُّل المصائب.

تعليقات على الحديث:

(١) ليس في الحديث النهي عن تمَّيِّ الموت لأجل السلامة الدينية من الفتن وما إلى ذلك، فهذه عند كثيرٍ من العلماء مُستثناة؛ فيجوز للإنسان أن يطلب الموت إذا خشي الفتنة في دينه، ويبقى الدعاء العامُّ هذا، الذي فيه: إنَّ كان، وإنَّ كان، -لعلَّه- الأسلم.

(٢) وفي سنن النسائي في الحديث الصحيح قال النبي ﷺ: "اللَّهُمَّ بَعْلِمِكَ الْغَيْبِ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي..." [أخرجه النسائي: ١٣٠٤]، وهذا دعاء من النبي بنفس ما في هذا الحديث، ولم يكن لضرر نزل به، وإنما دعاء عام؛ فهذا الدعاء ليس خاصًا بمن نزل به ضرر، وضاعت به الأحوال وإنما هو دعاء مما يُدعى به.

وفي نفس الحديث الذي في النسائي الذي فيه الدعاء فيه قول النبي ﷺ: "وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ..." [أخرجه النسائي: ١٣٠٤]؛ يعني أسألك الشوق إلى لقاءك، وأن لا يكون سبب هذا الشوق تمّي الموت لضرر أو فتنة مضلة؛ لأنه يُمكن للإنسان أن يدعو بالموت عند أحد هذين الأمرين: إمّا ضراء مُضِرَّة أو فتنة مضلة؛ فالنبي ﷺ يسأل الله الشوق إلى لقائه في غير ضراء مُضِرَّة ولا فتنة مُضِلَّة.

(٣) عمومًا، تمّي الموت إذا نزل الضرر لا يجوز، أو هو منهي عنه. وإذا ضاقت الأحوال بالإنسان فلم يستطع إلا أن يتمّي الموت فليكن تمّيه بهذه الصيغة وبهذا الدعاء: "اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي".

(٤) وهذا الحديث لا يتعارض مع الأحاديث التي فيها سؤال الله الشهادة في سبيله؛ لأنّ هذا الحديث في من تمّي الموت لضرر نزل به، أمّا سؤال الله الشهادة فهذا عام لا يُمنع في أي حال من أحوال الإنسان، بل إنّ سؤال الله الشهادة هو من أبواب الأجور الكبيرة؛ لأنّ "مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ". [صحيح مسلم: ١٩٠٩]

الحديث السابع عشر: "...قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ، فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ..."

الحديث التالي:

٤١- "عن أبي عبد الله، حَبَابِ بْنِ الْأَرْتِ -رضي الله عنه- قال: "شَكَّوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: "قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ، فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ

نَصْفَيْنِ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ، لِيَتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ". رواه البخاري". [صحيح البخاري: ٣٦١٢]

وفي رواية: "وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمَشْرِكِينَ شِدَّةً". [صحيح البخاري: ٣٨٥٢]

فوائد الحديث:

هذا الحديث فيه فوائد كثيرة جدًا، منها:

أولاً: ابتلاء الصحابة -رضوان الله عليهم-

وبذلهم لم يكن شفيعاً لهم من عتاب رسول الله ﷺ على استعجالهم.

النبي ﷺ قال قوله: **"وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ"** لأناسٍ لم يكونوا خارج الابتلاء، ولم يكونوا بعيداً عن ميدان المدافعة بين الحقِّ والباطل، ولم يقله لأناسٍ قد اعتزلوا ميدان القيام بالحقِّ والدعوة إلى الله ونصرة الدين، ولا قاله لأناسٍ مُنَعَّمين بعيدين عن الابتلاءات، وإنما قاله لأناسٍ قد عانوا، وكابدوا، ووجدوا الشدَّةَ، ومع ذلك يقول لهم: **"وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ"**.

ونحن اليوم نُبتلى بأناسٍ يستعجلون، وهم أصلاً في عافيةٍ وفي رخاءٍ، ولم يُواجهوا شِدَّةً، ولا واجهوا ابتلاءاتٍ، ولا سُلِّطَ عليهم الأعداء، ولا نصرُوا الإسلام وقاموا بالجهاد في سبيل الله، ولا بالتضحية في نصرة الدين، ولا قاموا بشيءٍ، ثمَّ بعد ذلك يقولون: أين نصر الله؟

نحن نقول: **"وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ"** هذه ليست لكم أصلاً، **"وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ"** هذه أصلاً للناس الذين ابتلوا وصبروا وضحووا وبذلوا، ومع ذلك **"وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ"**. طبعاً، هي بعموم لفظها للجميع، لكن أقصد أن الأجدر بها والأحرى بها هو مَنْ كابد وعانى، ومع ذلك يُقال له: **"وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ"**.

والصحابه -رضوان الله تعالى عليهم- قد لاقوا وعانوا في مَكَّةَ مُعَانَةً شديدةً، ومنهم خباب تحديداً؛ وقد كان خباب -رضي الله تعالى عنه- من السابقين للإسلام، وكان أحد أشهر رموز مَنْ ابتلي وعُذِبَ في مَكَّةَ؛ وهم: خباب وصهيب وبلال وعمار وأُمُّه وأبوه، هؤلاء هم أشهر مَنْ عُذِبَ وابتلي في مَكَّةَ.

وجاء في بعض الروايات في الأحاديث المشهورة أنه ما منهم من أحدٍ إلا أجاب، إلا بلالاً فإنه قد هانت عليه نفسه في الله. هكذا في اللفظ في الحديث: "فما منهم من أحدٍ إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالاً، فإنه هانت عليه نفسه في الله"؛ وكان يُسحب في أروقة وأزقة مكة، وفي رمضائها الحارة، ويُوضع عليه الصخور، ويأتي السفهاء ويتكلمون عليه، ويُضرب، وهو يقول: "أحدٌ أحدٌ، أحدٌ أحدٌ"، وأحياناً يُقال له: قل كذا فيقول كأنه: لا أسمع، أو شيئاً من ذلك حين يُقال الكلام السيء؛ فلم يُجب -رضي الله تعالى عنه-، إلى أن أتى أبو بكر الصديق فاشتراه، وكما قال عمر -رضي الله تعالى عنه- في البخاري أيضاً، قال: "أبو بكرٍ سيِّدُنَا، وأعتق سيِّدُنَا" [صحيح البخاري: ٣٧٥٤].

وبعد ذلك، لما أراد بلال الغزو في سبيل الله في خلافة أبي بكر الصديق، قال لأبي بكر: إن كنت إنما أعتقتني لله فدعني وعملي لله، وإن كنت إنما أعتقتني لنفسك فاحبسني لنفسك، فقال: إنما أعتقتك لله، فذهب بلال إلى الشام ولزمها إلى أن توفي فيها، رحمه الله تعالى.

على أية حال، خباب أحد رموز المُعذِّبين في سبيل الله في مكة، فلا عجب أن يكون هو راوي هذا الحديث، ولا عجب أن يكون هو الذي قال: "ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟"، ولا حظوا: هو الآن لما جاء للنبي ﷺ، ما طبيعة الطلب الذي طلبه من النبي ﷺ؟ هل الطلب الذي طلبه من النبي ﷺ هو مثلاً: يا رسول الله نحن لا نريد أن نستمر في هذا الطريق، أو أن الشيطان بدأ يدخل علينا وكذا؟ كلا، بل قال: ألا تدعو الله لنا؟ فقط؛ فهو طلبٌ طبعيٌّ - كما يُقال - طلب من النبي ﷺ أن يدعو الله أن يرفع عنهم ما هم فيه؛ ومع ذلك النبي ﷺ قابله بما قابله به من هذه الجمل، التي تدلُّ على قدرٍ من العتاب، أو قدرٍ من الجواب الذي يهز الإنسان المؤمن من داخله، فيقال له: "قد كان من قبلكم يُؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين".

ثانياً: استحضر أحوال السابقين من أعظم ما يثبت الإنسان.

وقد قصَّ النبي ﷺ على أصحابه في موضعٍ آخر وفي يومٍ آخر قصةً مفصَّلةً فيها هذا التعذيب، في قصة الغلام؛ فالراهب والوزير لما اعترفوا وعذبوا، شقَّهم الملك الظالم بالمنشار فلقتين. فالنبي ﷺ يقول

لخِبابِ إِنَّهُ لَمْ يُصِيبْكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، مَعَ كُلِّ مَا تَجِدُونَ، لَمْ يُصِيبْكُمْ مَا أَصَابَهُمْ؛ فَقَدْ كَانَ مَا أَصَابَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَشَدَّ مِمَّا أَصَابَكُمْ.

وفي هذه الجملة فائدة عظيمة جدًا، وهي أَنَّ من أعظم ما يُثَبِّت الإنسان في طريقه وفي حياته استحضار أحوال الثابتين والصابرين من السابقين؛ ولذلك قصَّ الله على نبيه في كتابه كثيرًا قصص الأنبياء وقال: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]. وسيأتي إن شاء الله بعد قليل، أَنَّ النبي ﷺ لما ابتلي بذلك الخارجي الذي طعن في عدالته، وطعن في عدله في تقسيم الغنائم، استحضر ﷺ ما أُصيب به موسى، فقال: "يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى، لَقَدْ أُذِيَ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ." [صحيح البخاري: ٦٣٣٦].

الشاهد من هذا كله أَنَّ استحضار قصص السابقين، وخاصةً الأنبياء، من أعظم ما يُثَبِّت الإنسان عند الشدائد والابتلاءات. وأمَّا الإنسان إذا لم يعرف هذه القصص، ولم يعيش حقيقتها، ولم يَدْم استحضارها، فَإِنَّهُ إِذَا أُصِيبَ بِالْإِبْتِلَاءَاتِ وَالشَّدَائِدِ قَدْ يَرَى أَنَّهُ أَوَّلُ الْمُبْتَلِينَ، قَدْ يَرَى أَنَّهُ لَا شَيْءَ قَدْ حَصَلَ مِثْلَ مَا حَصَلَ لَهُ؛ فَيَيْئَسُ، أَوْ تُغْلِقَ أَمَامَهُ الْآفَاقُ، بَيْنَمَا الَّذِي يَنْبَغِي دَائِمًا هُوَ اسْتِحْضَارُ سَعَةِ مَا حَصَلَ لِلنَّاسِ مِنْ إِبْتِلَاءَاتٍ، وَمِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ.

ثالثًا: التفاؤل بالمُستقبل من أهم ما يبعث الإنسان على الصبر والثبات.

ومن جهةٍ أخرى، فَإِنَّ من أعظم ما يبعث الإنسان على الصبر والثبات هو التفاؤل بالمُستقبل. والنبي ﷺ استعمل هذين الأسلوبين في نفس الموقف؛ الأوَّل: "قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ..." وذكر الحديث، والثاني: قال: "وَاللَّهِ، لَيَتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّكِيبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ."؛ فتح باب الأمل والتفاؤل في قضية المُستقبل للإسلام هو باب يُصَبِّرُ الإنسان؛ لِأَنَّ هذه الشدائد ستُعَقَّبُ بالنصر، ستُعَقَّبُ بالخير، ستُعَقَّبُ بالفرج، ستُعَقَّبُ بالفتح.

وليس بالضرورة أن يرى الجميع مصداق وعود النصر والتمكين في الدنيا.

أكيد أنَّ خباب لمَّا سمع كلام النبي ﷺ نقله بين الصحابة، وقال: ذهبتُ إلى النبي ﷺ اليوم... لا تحسبوا أنَّ منطقهم مُختلفٌ، هم بشر! تخيلوا الموقف يجري اليوم، ماذا سيفعل خباب لو صار فيه موقفٌ قريبٌ من هذا؟ وهناك مجموعةٌ مُشتركةٌ في هذا الابتلاء؟ تخيل مثلاً أنك ذهبتَ إلى أحد العلماء الصالحين في شدَّةِ تُعانيها أنت وإخوانك في سبيل الله، فأجابك جوابًا شفى صدرك، سترجع إليهم بالتأكيد وتقول: أبشركم اليوم قابلتُ الشيخ فلانًا، وكَلَّمْتَهُ والله أجابني جوابًا! يا أخي الحمد لله! فالمُتوقِّع أنَّ خبابًا، بعدما ذهب إلى النبي ﷺ وأجابه هذا الجواب، رجع إلى أصحابه، وقال لهم: إنِّي اليوم ذهبتُ إلى النبي ﷺ وقال كذا...

المُهمُّ، هل كلُّ مَنْ سَمِعَ هذا الحديث رأى مرحلة "والله، ليتَمَنَّ الله هذا الأمر، حتَّى يسيِّر الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ..؟" أم هناك أناس من الصحابة الذين سمعوا هذا الحديث أو وصل إليهم أو علموا معناه ماتوا قبل أن يُتِمَّ الله هذا الأمر؟

منهم مَنْ نقل خبره خباب نفسه في البخاري أيضًا، في الصحيح: "فَمِنَّا مَنْ مَضَى لَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا، مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ" [صحيح البخاري: ٣٩١٤]؛ فَمُصْعَبُ كان معهم، وكان أيضًا يُواجه الشدائد - خباب هو الذي نقل قصة مُصْعَب -، ثمَّ بعد ذلك كان أوَّل السفراء في المدينة لدعوة الإسلام، ثمَّ اسْتُشْهِدَ يَوْمَ أُحُدٍ، يَوْمَ أَحَدٍ قَبْلَ الْغَنَائِمِ، قَبْلَ أَنْ تُفْتَحَ الْخَيْرَاتُ عَلَى النَّاسِ، قَبْلَ خَيْرِ، وبطبيعة الحال قبل فتح قصور كسرى وقصر. أمَّا خباب فأدرك كثيرًا من هذا الخير وهذه الفتوحات.

فالفائدة هي أنَّ الوعود المُتعلِّقة بالنصر والتمكين ليس بالضرورة أن يراها الجميع، هي حقٌّ في ذاتها، لكن ليس بالضرورة أن يراها الجميع، قد تراها فئةٌ ولا تراها فئةٌ أخرى؛ والشَّانُ كلُّ الشَّانِ هو في اليقين بوعد الله سبحانه وتعالى، وفيما أخبر به سبحانه وتعالى، وليس في أن يرى الكل مصداق هذا الوعد.

نسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق والعون والسداد، وأنَّ يغفر لنا ويرحمنا، وأنَّ يهدينا ويُسدِّدنا، وصلِّ اللهم على نبينا مُحَمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.